قراءات | رزاق ابراهيم حسن يكتب عن قرار أسرة عبد عون الروضان طبع أعماله الكاملة وعلاء خليل ناصر في كتابيه المترجمين وعرض لمجلة سومر الآثارية وعباس الزهيري يكتب مذكراته

اضواء | في حوار مع القاص علي السباعي أنا أرسم للعالم أفاقاً سومرية وكمال غمبار يقرأ قصيدة الخريف للشاعر الكردي الرائد عبد الله كوران

فنون | من تونس يكتب فائز جواد عن المسرح البلدي بالعاصمة وعرض المسرحية العراقية رائحة حرب ومعرض في جامعة دهوك لمخطوطات الشيخ طاهر الشوشي

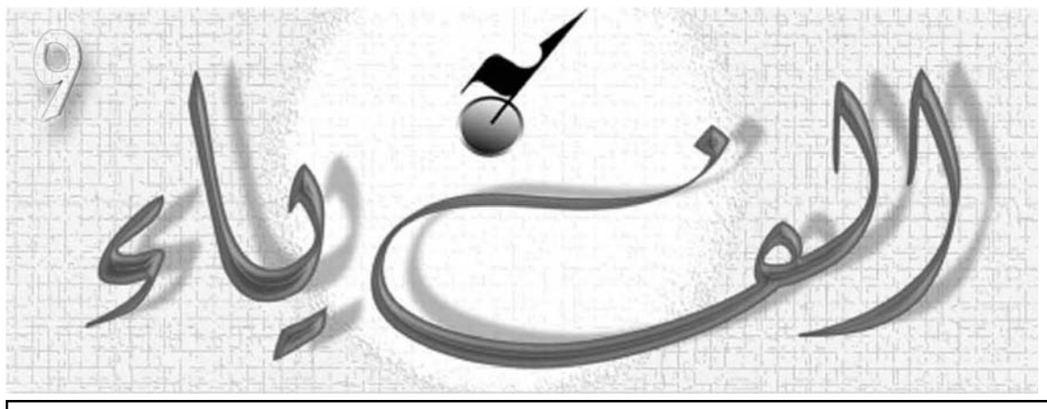

مقدمة في ميتا ـ السرد عند أحمد خلف

متغيّرات الأرواح وساعات إنجاز الرواية

نعيم عبد مهلهل
دوسلدورف

في مقهى ننكرسو في مدينة طنجة المغربية ـ يضع صاحب المقهى صورا لرواده المشهورين الذين كانوا يرتادون المكان، ومن شتى الأمكنة ، ومن يجمعهم هو رجل واحد من أهالي طنجة ، احترف الكتابة الروائية بعمر متأخر بعد ان افترض لنفسه إصرارا اسطوريا وتعلم القراءة والكتابة في وقت متأخر ، ثم اصبح معلما ، وأخيراً نال الشهرة كلها عندما فاجأ العالم بإباحيته الصريحة في روايته الخبز الحافي. أردت من صاحب المقهى ان يؤشر لي على الطاولة التي يجلس عليها الروائي محمد شكري وهو يأتي بأصدقائه من أجل شرب الشاي الأخضر وتدخين السكائر الفرنسية التي يحبها هو ، بينما كان عبد الوهاب البياتي يحب سيكارة الروثمان، اما الروائي الآخر الذي كان يأتي بصحبة محمد شكري فهو العراقي عبد الرحمن مجيد الربيعي ، ولا يتذكر ان كان يدخن أولا . اقترح عليّ أصدقائي المغاربة من أبناء طنجة أن نعقد ندوة نقاشية في المساء نستذكر فيها الوجوه العراقية التي كانت تأتي هذا المكان .. لكن احدهم قال: ان ما تفعله من أجل تلك الوجوه التي تحل ضيفة على طنجة قد كُتب عنها كثيرا. لهذا أراد ان نحول وجهتنا الى فندق ريترز حيث كان يجلس جان جينيه المدفون في مدينة العرائش القريبة من طنجة ، وكذلك عراب شكري الأمريكي بول باولز . الاثنان جان جينيه وبول باولز اصبحا جزءا من المشهد الستيني والسبعيني لليل طنجة ونهاراتها، وشكل المكان بالنسبة لهما بهجة سرية غريبة ، لهذا اراد جان جينيه لقبره ان يكون قريبا من رمال شواطئ طنجة فدفن غير بعيد عنها. انا حسمت الأمر وقلت أتمنى ان نجعلها حديثا عن السرد العراقي، واني أثناء رحلة القطار بين كازا بلانكا وطنجة حملت معي كتابا روائيا للروائي احمد خلف والرواية التي اشتريتها من مكتبة قرب مقهى فرنسا في الدار البيضاء عنوانها (حامل الهوى) والصادر عن دار المدى . فاجأني عز الدين مهاوش بانه يعرف احمد خلف جيدا من خلال القصص القصيرة التي قرأها له في مجلة الأقلام، وانه في سنوات الحصار على العراق في تسعينيات القرن الماضي اقتنى من مكتبة مدبولي في القاهرة كتابا قصصا لمجموعة من القصاصين العراقيين عنوانه (حين يحزن الأطفال ..تتساقط الطائرات) وكانت لأحمد خلف قصة في هذا الكتاب . تعجبت من ذاكرة مهاوش العجيبة وهو يحتفظ بقصة وعنوانها لقاص عراقي تخيلت اني اجلبه لليل طنجة الثقافي لأول مرة في أماسيها الثقافية، والمفاجأة الأكبر انه ذكرني ان ذات الكتاب يحمل قصة لي عنوانها (ميثولوجيا معاصرة)، اما قصة احمد خلف فكان عنوانها (أوان غريب) وراح كمن يطوف في شوارع ذاكرته يتحدث لنا عن قصة احمد خلف الذي لم يزل متأثرا بأجوائها ، عندها تذكرت ما كان الأديب والمترجم احمد الباقري يذكرنا به انه عرف احمد خلف عام 69عن طريق قصة له أسكنت فيه دهشتها وكتب عن احمد خلف وقصته وكأنه يعرفه تماما. تحدث عن أوان الغريب وكأنه قراها امس ،واحال تفسير القصة الى ما كان الجميع يعتقده عنها يوم كتابها من انها قصة مختفية خلف قناع المقاومة ولا ترضى بالذي حدث تماما ، وقال مهاوش وقتها انه لم يزل يحتفظ بملامح راهب تلك القصة المسمى (ذي الفضيلتين) وانه في حسه ومبدئة يشابه الهاجس الصوفي الذي كان يمتلك الأسياد في ميثولوجيا الشعائر الدينية المحكية في التراث الشفاهي المغربي ، ومن ان هذا الظل المتخفي على شكل سيد وقور وبعمامة سيأتي ذات يوم ليكون مخلصنا جميعا ، وأشار ان احمد خلف ربما جعل هذا المسمى (ذي الفضيلتين) قرينا لظهور الأمام المهدي ،وان القصة هي تماما البحث عن بديل اخر بعد فشل الانتفاضة الشعبية في بداية التسعينات. لا ادري لماذا جنح قارئ قصة احمد خلف لهذا التصور ، عدا اني اتفق معه تماما ان الروح الخفية التي سكنت هاجس القصة كانت تمثل بطلها من خلال تفكير احمد خلف اليساري وربما استخدم هذا الرمز ليخفي رؤيته الى ما الت اليه الأمور ،وكان عليّ ان أفهمَ جُلاس تلك الأمسية ان هذه المجموعة القصصية التي جمعت حشدا من كتاب العراق والتي صدرت في القاهرة في اغلب قصصها كان هناك من يرتدي القناع ويقول المخفي الذي يسكنه ليس لمهاجمة الوضع فقط ،بل ان الغضب مما تركته الطائرات الأمريكية على البنية التحتية من دمار بدى مؤشرا ان القصص اختلفت في غاياتها لكن احمد خلف جنح الى شيء من العميق الروحي والبسه شكلا تاريخيا وصوفيا وكانت طقوسه غامضة ولكنها حادة وعميقة وتوريتها التزمت باشتغال قصصي متمك .

صاحب قصة

جلس الجميع امامي ليستمعوا الى رؤياي عن صاحب القصة التي وصلتهم في ذات يوم تسعيني ،وقد قراها النخبة ربما ،لكن واحد فقط يتذكرها الان وهو اكثر الجالسين سعادة ليسمع مني ما اتحدث فيه عن خصوصية السرد عند هذا الروائي العصامي الذي يظن الاخر انه قد ينهار كما جلجامش لانزعاجه من متغيرات عصر كانت فيه قصصه ورواياته بعض خصوصية المشهد ،لكنه لم ينل كثيرا من الحظوظ ليكون معروفا عندما اخبرتهم لو احمد خلف روائيا مصريا ويمتلك ذات الخصوصية والغرابة في كتابة النص الروائي لاصبح مشهورا مثل جمال الغيطاني. واضفت لهم انه ليس مجهولا عندنا او عند العرب ،ولكني أرى في تجربته العميقة في السرد الروائي والقصصي من بعض حداثة المنجز في تنوع اشتغاله من الظاهرة الستينية ثم الى السبعينية وحتى زمن العولمة حيث تتعامل روايات احمد الخلف الجديدة مع المتغيرات بشكلها الاجتماعي كمن يمسك منظارا واسطرلابا ويتعامل مع المجتمع بشخوصه ونفسياتهم وتحولاتهم الروحية والاجتماعية والعاطفية أيضا ، وضربت لهم مثلا روايته المهمة حامل الهوى. وهي رواية سايكولوجية تماما وكأنها كتبت في عيادة فرويد حيث رصد احمد خلف المتغيرات العنيفة في الروح العراقية وتأثير ما سيحدث في التعامل على خلفية الإرث القلق والمشوه الذي انتجته الحياة العراقية قبل 2003لتنتج في 2005زمن صدور الرواية حياة أخرى ستؤدي الى الكثير من المآسي على المستوى الاجتماعي في توازن العلاقة بين الانسان ومحيطة ،وربما قصة الدكتور نادر صالح مع زوجته وعاطفتها الخائنة والقلقة هي الأقرب الى شكل المتغير الذي سيعم الكثير من الطبقات ذات التوجه الليبرالي والارستقراطي ليس في المجتمع العراقي وأنما في المجتمع العربي عموما أيضا. قلت لمن يستمعون اليّ ان احمد خلف يشتغل على النص كما يشتغل الجراح الماهر على العلة الخلقية في الجسد ، هناك تشوهات عليه ان يراها ويؤشر عليها ومن ثم يعالجها بالتداخل الجراحي ، وربما احد خلف يفعل ذلك تماما ، لقد جعل روايته عبر شخوص تتغير اداورهم ومسمياتهم وهم يخضعونَ لقدرية الوضع الذي عاشوه قبل 2003 وحتى عندما لم يشر الى التواريخ إلا ان احمد خلف كان يمنحنا مشاهد منظورة وسينمائية عن أناس يعيشون فينا نعيش معهم ونصادقهم ، ولم يكن بطل روايته ساديا في كشف أرواح وخبايا من يتعامل معهم ،بل انه في النهاية حمل اسم غاندي داعية السلام فقط ليظهر لنا ان احمد خلف يبحث عن شخصية مصلحة وليس شخصية تدميرية حتى مع ذلك الإيروتيكي الذي نعيشه في الخيانات وممارسات الجسد والغربات المكبوتة والمعلونة والعاطفية التي حاول بها حامل الهوى ان يخلق لنا توزانا في جعل ماناراه ليس بالضرورة هو مشهدنا الحياتي ولكنه موجود ويُعاش في امكنة قريبة منا قد نراها او لانراها. اخبرتهم ان الراوي في حامل الهوى لم يكن مستعارا من قبل كاتب الرواية ،بل كان هو الراوي نفسه ، وقد تعامل من المشهد العام لحركة المجتمع لرد فعل قوي سكنه وكان من بعض احلامه ان يكون التغيير شاملا في البنية العمرانية والروحية لمجتمع بلاده ، وحتى يمضي عميقا مع مبضعه في ترقيع وترميم الظاهرة الاجتماعية التي نالت الكثير من الويلات والحروب تعامل معها سايكولوجيا ، واعطيتهم مثلا عزلة احمد خلف في تسعينات القرن الماضي عن كامل المشهد الثقافي والاجتماعي العراقي في تسعينات القرن الماضي ، وربما ما تلاه الروائي هو بعض لسان تلك الرؤية العميقة في المتناول السردي عبرة منهجية الميتا سرد التي يحددها التعامل الخيالي بين الحكاية وصانعها الذي ظل احمد خلف امينا عليه منذ روايته الأولى والى اليوم: ((كان الشخص الآخر قد طرق عليّ وحدتي ، الشخص الذي يحدثني . أسمعه ولا أراه ، ويلح عليّ ، ويلح على خاطري ويثقل عليّ وحدتي)) رواية حامل الهوى صفحة 76. يكتب احمد خلف روايته بتأني ، ويستفيد كثيرا من مشاهداته وعزلته وثقافته ، بل اظن انه يخبيء التوثيق الذي يسجله في دفاتره الى لحظات تختمر لديه فكرة الرواية ،لهذا تأتي عناوينه مع الصدى القوي لفترة ليست قصيرة من التأني والعزلة ومراقبة ما يحدث بهدوء بعيدا عن أسئلة المجتمع الثقافي والأصدقاء عن عدم التواجد العام لاحمد خلف فيما يملأ الساحة الثقافية الكثير من اشباه متعثرة بعكاز من منتج ضعيف ومتهالك واستعراضي.

شخوص مؤثرة

يخلق احمد خلف رواياته من عالم يؤسطره في رغبة ان تكون الشخوص مؤثرة في المتلقي ، وفي كل روايته يجنح الى الغور في الذات البشرية ويضعها امام قارئة كحجم غامض لفكرة روحية يتلبسها الجسد وبين الروح والجسد يضعد احمد خلف روابط الاحتكاك والتعايش من خلال منظور اجتماعي ، حتى تشعر انه يوظف البيئة من اجل ايضاح الصورة التي قد ينالها التشويش ولم يتضح لنا تأثيرها وملامحها بسبب الحروب والعولمة والقراءة الخاطئة لتواريخنا . انه يُنشيء لنا ممالكاً من عدة جهات وتلتقي عنده في الرواية محكومة بقدريتها وبيئتها وارتباطاتها . اظهر احمد خلف في ميتا السرد لديه قدرة لغوية احترافية ،وغاب الانشاء عنه تماما ،والبعض حين تخيل انه يجنح الى تجميد العبارة عبر احكام سردي قاس يصل به حد الاسراف في في شد العبارة الى المعنى المتأزم في حياة شخوصه ،لكن القارئ ذاته سيفاجأ بتلك النهايات الشعرية التي يتركها لنا الرواي في قناعته ان الحياة لن تنتهي عند خيانة او قتل في حرب او جوع في حصار ، وان مهمته في الحياة ان يكون صانع المخيال المغاير تماما لتلك الشفاهية المتاولة التي تحكي عن الذي يجري في ايامنا وهو هنا ربما من دون ان يعلم يلتقي مع رؤية انطونيو كاليفينو القائلة : ان الرواية هي سرد لما تراه انت اولا وما تظنه ، ودع القارئ يذهب حتى لو في الطريق المغاير .لكن نقطة ما داخل الرواية ستفاجئكما وتلتقيان عندها. لم يكن احمد سوى ذلك المسكون برغبة العثور على تلك النقطة ليتصالح مع بعض قراء الرواية من انه يذهب عميقا في جعل شخوصه استثنائية حتى في محرماتها ، واظن ان الكتابة بهذا الشكل بعيدا عن مؤثرات ديستوفسكي في قراءة مراهقتنا الاولى ومثلنا ربما تعرض احمد خلف لهزة من عوالم الروائي الروسي ، إلا اني اراه وقد امتلك هكذا تخصص في بناء الرواية بشكل ذكي ومتقن ومؤثر آت من قراءات لاتحصى لثقافات شاعت كتبها في ستينيات القرن الماضي . ومنذ بدايات ثورتها ونبؤاتها كانت مجموعته القصصية المهمة (نزهة في شوارع مهجورة (1974وفي هذه المجموعة التي بشرت لها قصته الشهيرة (خوذة للرجل نصف ميت) والتي نشرها في الاداب البيروتية عام 1969والتي كانت الدافع لاكمال اول احلام احمد القصصية في التأني في خيارات حكايات مجموعته القصصية الاولى .

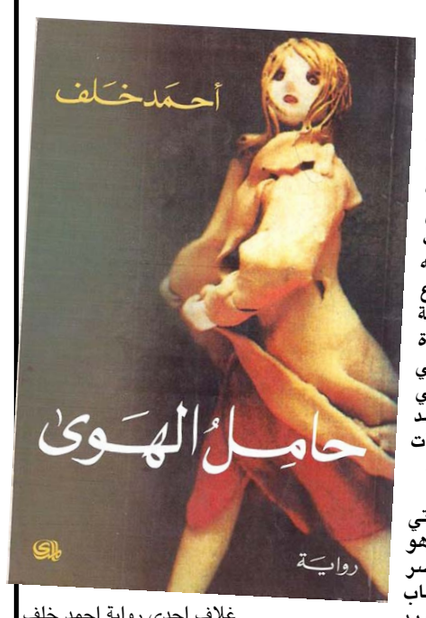

غلاف احدى رواية احمد خلف

خواطر اسئلتي

وسأتذكر مع احمد خواطر اسئلتي حول هذه القصة عندما كنت انا وهو محسن الخفاجي وعبد الستار ناصر ومحمد خضير ومحمود عبد الوهاب وحسين عبد اللطيف وجهاد مجيد ومحمود جنداري وزيدان حمود ، وقد قررنا ان تكون لنا ليلة ادبية في غرفة سويت في فندق نينوى اوبري في ندوة قصصية وأدبية اقامها اتحاد ادباء نينوى وجامعة الموصل عام . 1994وهناك اثرت مع احمد خلف هواجس تلك القصة واعدتها الى ما كان اهل اور وبابل يعتقدوه ان الكاتب عندما يضع نبؤته تصبح لوحا مقروءاً ، اما الكاهن عندما يضع نبؤته فتكون صوتا مسموعا قابلا للنسيان ، وقتها توقف معي احمد خلف وقال انا من جماعة المدونين لانني لا اريد الكهونية التي يلفها النسيان . من هذا الهاجس فتحت معه نافذة القصة الاولى خوذة لرجل نصف ميت ، وحدثته عن حالة الفزع التي سكنت صبانا حين تحدث عنها احمد الباقري لاول مرة ،وان هذه الخوذة هي اسقاطات ذلك الالم الذي عاشه العربي ونعيشه نحن اليوم ،وربما عقب هو قائلا : وسنعيشه في السنين القادمات . ليأتي صوت عبد الستار ناصر وسنعيشه الى الابد. لقد كانت تلك القصة قصة حرب ،ولكنها لم تخضع لاشارة من واحد يريدها كي يجعلها مبررا لحروبه ،انما كتبها فقط ليظهر لنا سايكولوجية الهاجس في الهزيمة وفي العلاقة الانسانية بين الجندي واسرته وكانت زوجة الجندي انموذجا. تفاعلت حكاية احمد مع ذهن بنمط معرفي وحسي ،وذلك بسبب ان تشابكات القصة حدثت في فجيعة حزيران حيث اخذت منا اراض بحجم مساحة دول اوربية ، ثم ان ذات الفجيعة تطورت امام مرأى القاص في حرب استنزاف ثانية كانت تحدث بين الجنود العراقيين والفصائل المسلحه للملا مصطفى البرزاني وهو ما سمي بحرب الشمال ،ولا اعرف ان كان احمد وقتها كان يعي ان حزيران لم تنته مع تراجيديا الخوذة والجندي المدفعي أنما استمرت مع هاجس نعوش تركت خوذها في صمت ربايا الجبال العالية ونزلت مضرجة بالدماء . وقتها قال احمد ان قصته كانت تنبأ العالم بأن الامر لن يكون حزيرانا فقط. أقول لأحمد الان وهو يجدد ذات الهاجس الخفي في اسقاطات قصته الاولى في الكثير من روايته حتى من دون ان يعلم ، أقول له ان الروائي ولد ليكون هكذا مدونا لنبؤة لوح الطين ودموع خوذ الحروب. في رواياته التي اتت بعد 2003 يكشف لنا احمد خلف تفاصيل ما كان مكتوما بسبب الرقيب وحبل المشنقة، استطاع في حامل الهوى ان يتجاوز نمطية التعامل مع الذات العراقية وحررها الى قراءات ابعد ، وإن انحصرت في بعض مشاهدها عن طبقة تميل الوسطية او البروقراطية لكنه ايضا كان يذهب الى ما يجعل تفاصيل حياته القديمة والابدية الريفية التي صنعت روح اجداده تمثل جوها عميقا في صناعة الخفي من كل رؤى رواياته ،ومع تسارع الخطى سنكتشف الكثير من تلك الايقونات الخفية التي حاول بها الروائي ان يثير مرة اخرى فكرة الانتباه الى هكذا نمط من الروي المتقن والرصين والعميق ايضا. ميتا السرد عند احمد خلف هي ميتا ـ حياته . عالم البيت الخفي الذي ظل غامضا في حدود ابوته وحنانه الفطري الدافئ ،ولكنه مع رواياته عكس عصر من المعاناة على المستوى الفردي والروحي بالرغم من انه يدين بالولاء لام اولاده لانها شاركته تلك السنوات المجنونة من القحط والعوز دفعته ليحمل اقدام جلجامش ليبحث حتى لو عن بذرة واحدة من ثمرة الحياة ، وذهب ليفترش الكتب في شارع المتنبي .وليثبت للمتبضعين والمشترين ان الكرامة لايمكنها ان تكون رهنا بأسطورة ملك سومري ،بل الروائيون وموظفي الراتب (3 دولارات) في نهاية الشهر يصنعونها ايضا. يوم كنت اتحدث عن احمد خلف في طنجة لم تكن رواية تسارع الخطى قد ظهرت للوجود ،لكني اشعر انها ربما كانت موجودة كمسودة في دفاتره او على شاشة الحاسوب . وهذه الرواية تكاد ان تكون هي آناباز كل روايات احمد خلف ،واناباز هي الرحلة الاسطورية التي قام بها القائد الاغريقي اكزينون وتسمى رحلة العشرة الاف جندي حيث امر ان يكون سير رجاله في انسحابهم بطريقة معاكسه ، من اجل كشوفات يعتقد اكزينون انها غامضة لديه وعسيرة ،وتلك الرحلة تم اشتغالها شعريا بذات العنوان (اناباز) من قبل الشاعر الفرنسي سان جون بيرس والذي استخدم احمد خلف نصا شعريا من نصوص بيرس ، وحتى من دون ان يعلم ربما يدفع قارئه الى الاتيان بذات الرغبة للكشف عن الذي يحدث بالضبط في عالم تغيرت فيه النفوس والطرائق والسلوك عندما وجد عبد الله بطل رواية تسارع الخطى نفسه مخطوفا من قبل جماعة لايعرفه ولايدري لماذا تم اختطافه، والنص المأخوذ من واحد من مدائح سان جون بيرس يقول كما في مقدمة الرواية : (هذه حكايتي سأرويها ، هذه حكايتي ستُسمع .. هذه حكايتي سأرويها كما يليق ان تروى.. سيكون سردها لطفا يفرض الاستمتاع بها) والرواية هي تفاصيل الملحمة الشعبية للبشر الذين كانوا يحلمون ولم يجدوا ما كانوا يتمنون عبر تلك السعادة الخفية بما تغير ، ولكنه في النهاية يسكن الاحباط تلك الحشود المختفية وراء الف قرن من الاستلاب ولا تحصل على كل المبتغى وتقع فريسة لظروف لم تتخيل انها تمر بها على شكل محنه عسيرة اتت بمئات السيارات الارهابية المفخخة ولصوص المتاحف وغيرهم ، وهو ما نطقه صوت عبد الله في بيت الدعارة الذي احتجزه فيه المختطفون : ((أي خديعة قادك إليها أيها القدر مرغما؟ كم من السنوات ضاعت وتلاشى بريقها الان ؟ في أي شارع أو زقاق منسي التقطوك وأرغموك على المجيء معهم..)) ولأنني في مقالي هنا ليس لتشريح النتاج الروائي لاحمد خلف بل اني اضع خواطر المعايشة والصحبة مع الرجل وروايته عبر عشرات السنين سأختصر في تسارع الخطى الثيمة السرديدية التي اشتغلها الروائي من اجل ان يثبت لنفسه وللعالم ان صور الخوذ التي تركتها الحروب القديمة بقيت تعكس اسقاطاتها على عموم المشهد الاجتماعي ، الشارع والحانة وبيت السياسي اللص والرصيف الثقافي ووكر البغاء وامكنة استطاع فيها احمد ان يظهر لنا خصائص الازمة النفسية والاقتصادية والاجتماعية التي يعيشها الفرد العراقي. هو التقى مع ديستوفسكي في القصد لكنه اختلف معه لأن الروائي الروسي كان يعتصر الروح البشرية حد الانفجار وهي تتحدث عن اسقاطات ما في داخلها ، لكن احمد خلف نقل لنا صورا ولقطات لبانورما الحياة ،ومعها ذات الاسقاط لكن التلوين عند احمد كان اكثر سعة بسبب العولمة ومتغيراتها ودبابات سقوط بغداد. ديستوفسكي كان يأخذ من الذات حدثا عظيما ، احمد خلف كان يأخذ من الجزئية الاجتماعية ذات الحدث ويحولها لنا الى سيرة ذاتية ليومنا ،ولكنها سيرة مؤثرة وتحتاج الى تحليل ،وهي كفيلة بجعل القارئ لايستمع قرائيا وذهنيا فقط ، بل يضع الاسئلة أن كان الحال سيتعرض له هو كما حدث لعبد الله. ميتا ـ السرد عند احمد خلف هو خيط وصل العلاقة بين المضمون والسرد وقد ينشط هذه العلاقة خيال الكاتب في جعل اللحظة الانسانية ومتغيراتها وشخوصها دافعا لبناء حالة حياتية جديدة ، بالرغم ان الروائي في اغلب رواياته يتحدث عن خيبات وانهيار منظومات لكنه في النهاية يلملم زجاجها المهشم ليصنع منه مرايا جديدة ، وهو رد على الذي اخبرني ذات مرة :ان احمد خلف يبحث عن الكآبة دائما .وكان جوابي ويحولها الى فرح مخفي في النهاية . وعندما اراد وضوحا لردي قلت كلاما للروائي الالماني لهيرمان هيسه :القارئ في النهاية سيفرح بكل خرائبنا التي نضعها امامه ،لانه سيساعدنا في اعادة بنائها مرة اخرى تلك هي رسالة احمد خلف في حياته كلها . ابقى وجهه امينا لجهة السرد ،ولم يجنح مع هوى عاطفته ليكون شاعرا ،لقد كان يقرا في عيون ابيه تلك العبارة السومرية الاتية من حقول الرز في صباحات الشنافية :اريدك روائيا يا ولدي ،لتقص للاخرين حكاياتك عن الاثر الذي تركته (أنا) فيك.!

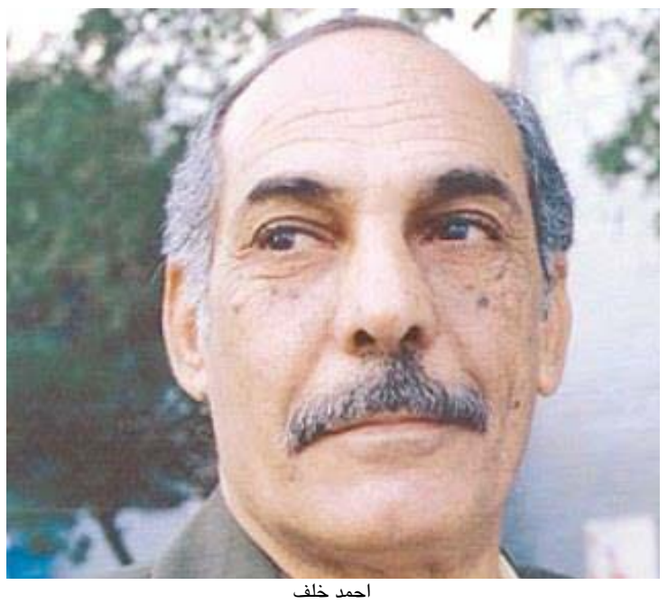

احمد خلف

نصف قرن مع السرد

ناطق خلوصي
بغداد

بحلول العام 2018 يكون قد مر نصف قرن على بداية صلتي بالسرد واهتمامي به :ساردا ًأولاً ثم مترجماً له ، فكاتبا ًلقراءات نقدية عنه ، وكان اهتمامي به ،قارئا ً ، قد بدأ قبل ذلك ببضع سنوات . أول قصة لي كانت بعنوان " الملجأ " نشرت في العدد الثاني من مجلة " الرائد " (تشرين الثاني 1968) وكانت تصدرفي كربلاء أيام كنت أعمل مدرسا ً في مدرستها الاعدادية . لكن ما شجعني على مواصلة الاهتمام بالقصة بشكل خاص أن مجلة " الآداب " البيروتية نشرت لي أول قصة أرسلتها لها ـ وكانت بعنوان" الفارس" ، قي العدد الحادي عشر ، تشرين الثاني 1970.

لم أكن متعجلا ً فقد انتظرت بضع سنوات قبل أن أدفع مجموعتي القصصية ألأولى" الهجير " للنشر وقد صدرت عن وزارة الثقافة والفنون ـ بغداد 1978. أما مجموعتي القصصية الثانية " شجرة الآب " فقد صدرت عن اتحاد الكتّاب العرب ـ دمشق ـ 2009 إلى جانب العديد من القصص القصيرة نشرت في صحف ومجلات عراقية وعربية مختلفة وتمت ترجمة عدد من قصصي إلى اللغتين الانكليزية والفرنسية ، واختيرت قصص لي ضمن ثلاث مجموعات قصص مختارة مترجمة إلى اللغة الانكليزية . لي خلال ما يقرب من ثلاثين ستة ، ثماني روايات منشورة حتى الآن : " منزل السرور " ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ " 1989الخروج من الجحيم " ـ دار الحرية ـ 2001 ، " المزار " ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ " 2004شرفات الذاكرة " ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ " 2013أبواب الفردوس " ـ دار ميزوبوتاميا ـ بغداد ـ " 2013تفاحة حواء " ـ دار ضفاف ـ الشارقة ـ " 2014اعترافات زوجة رجل مهم " ـ دار ميزوبوتاميا ـ بغداد ـ " 2015البحث عن ملاذ " ـ دارميزوبوتاميا ـ بغداد ـ " 2016بستان الياسمين " ـ تحت الطبع . ولي ،إلى جانب ذلك ،روايتان نشرتا في حلقات في الصفحة الثقافية لجريدة التآخي ـ بغداد ، هما " عشاق الشمس " ـ 2010و" منزل المزرعة "ـ 2012. وضمن تخصصي الأكاديمي باللغة الانكليزية مارست الترجمة وكان ضمن ما ترجمت بعض القصص منها ما نشر في مجلة "الثقلفة الأجنبية " ثم ترجمت رواية " خصام " للكاتب الاذربيجاني مقصود ابراهيمبيكوف ، وقد صدرت عن دار الشؤون الثقافية عام 2007. وبعد أن كنت قد مارست كتابة النقد التلفزيوني لأكثر من عشرين سنة ، توقفت عن ذلك وتحولت نحو كتابة قراءات نقدية عن السرد فتناولت أكثر من ستين رواية ومجموعة قصصية حتى الآن .

قام الأستاذ شوقي كريم حسن بإعداد روايتيَ :" منزل السرور " و " المزار " في مسلسلين إذاعيين لحساب اذاعة بغداد وأعد الأستاذ بدري حسون فريد (رحمه الله) قصتي " الرحلة " التي نشرت في مجلة اتحاد الأدباء في تمثيلية تلفزيونية منعت من العرض ،أما شيخ المخرجين الأستاذ محمد شكري جميل فقد كلف كاتب السيناريو الأستاذعلى صبري مؤخراً بإعداد روايتي " الخروج من الجحيم " فأعدهاً في فلم سينمائي لم يجد طريقه ، على ما أعلم ، إلى التنفيذ بعد !

(أول قصة نشرت لي وكان ذلك في العدد الثاني من مجلة" الرائد " ـ تشرين الثاني 1968)

الملجأ

بين الفينة والفينة يتدفق الى هنا سيل من الكتل البشرية المرعوبة ، صغار في عمر الورد تلتمع في وجوههم البراءة ونساء يتحرقن ألما ً وشيوخ ترتعش أجسادهم كأشجار جرداء في مهب ريح خريفية عاتية . الكل يندفعون بخطى محمومة ووجوه يتنفس فيها الهلع وعيون يخالط بريقها الذهول . . منذ مطلع الصباح وأقدام الغزو الثقيلة تزحف عبر المدينة بعنف بالغ ، منذ اللحظات الاولى تحولت الدروب إلى مستنقع من الدم ... وحين تجرأ رجل شجاع وتكرّم عليّ وحملني كتلة من اللحم المتكور وأوصلني إلى هنا ، كان كل شيء في الخارج قد بدأ ينحدر نحو العدم وكانت رائحة الموت تخنق الصدور .

في مثل هذه المسافة القصيرة التي يقطعها الزمن عبر رحلته الطويلة ، تفقد الحياة معناها ولا تبقى هناك أية قيمة للوجود الانساني الانسان هذا الكيان المشدود الى جبل من الكبرياء لا يلبث أن يتحول في لحظة بائسة الى لاشيء .. الى صفر تافه في حساب النسيان .

سألت نفسي مرة ومرة عن سر هذا السقوط الحاد في حياة شعبي نحو هاوية عميقة من المعاناة . ولكني عجزت عن أن أحل اللغز . عشرون عاما ً من الأسى والضنك والمرارة عشناها ، وقدر من العذاب كتبه علينا الزمن .. الضياع أقسى ما يستطيع حس الانسان أن يتحمله ، وتحملناه صابرين . عشرون عاما ً ونحن غرباء في وطننا نأكل اعصابنا ونشرب دموع مآقينا .. اخجل من نفسي حين اريد ان استعرض ابعاد هذا الواقع المأزوم الذي اعيشه فلا أجد غير الصمت ملاذاً اهرب اليه .

تصاغرت اليوم محنتي الذاتية التي عانيت منها طوال السنوات العشر الأخيرة المنسلخة من عمري المجدب ، تصاغرت أمام محنة وطني ومحنة هذا الجيل الذي فتح عينيه على الهزيمة . بالأمس حين ابتعدت عنا خطى الربيع العذب خلفت بيننا نكهته المحببة . على امتداد الأرض يساط من الاخضرار والبيارات جذلى والدفء يجري في كل مكان .. الوجوه تطفح بالبشر ، وفي العيون يشرق الاصرار ، والأحلام ندية ، واليوم وعلى عتبة الصيف وفي لحظة حقد مجنون ينقلب كل شيءالى الضد ،احس الآن بتل ااالسى يجثم على صدري فلا استطيع الحراك .. الجو هنا خانق نستجدي نسمة الهواء ونصلي حزانى صامتين . لا استطيع ان اشعر بالاطمئنان ابداً . يبنون الملاجيء لنهرب اليها حين يداهمنا الخطر فالى اين نلجأ حين نهرب من انفسنا ؟الى اين نلجأ حين تتحول اللعنة الى سياط غاضبة تلهب اعماقنا ؟ ما زال الملجأ يستقبل المزيد من الناس ولم يعد هناك مكان لأن يقف فيه انسان ، وانا ملتم على نفسي والى جانبي امرأة عجوز تولول وثمة اخرى في حدود الاربعين قاسية الملامح حادة النظرات كانوا ينادونها بأم فواز و كنت ارى فيها نموذجاً لانسان الجيل الذي عاش مأساة النكبة وذاق مرارة الضياع . كانت ام فو از تنظر الي بعينين تقدحان شرراً، وكأنما ألها ان تراني اتكور هنا في الوقت الذي يموت الآخرون دفاعاً عن تراب مدينتهم. ماذاينقصني في نظرها لأن اكون رجلاً كالآخرين ؟وجه تتدفق منه الرجولة وشاربان كثان وذراعان صلبان . ولكن أأقول لها ما الذي يمنعني من ان اذود عن كل ذرة من هذا التراب الحبيب الى نفسي ؟أقول لها انني كنت اتمنى الان لو ان ذلك الرجل الشهم لم يأت بي الى هنا ، لو انه تركني اموت هناك في مكاني؟ أأقول لها انني انسان بنصف جسد ؟؟ اشحت بوجهي عن ام فواز في محاولة للهروب من موقف قاس ، وانحدرت من عيني دمعتان ساخنتان وسمعتها تقول لجارتها امعانا ً في اثارتي :

ويبكي ايضاً ... يا للعار .. رجالنا في الخارج يفتحون صدورهم للرصاص يسقطون ببساطة ويختلط دمهم بالتراب الذي احبوه وهو هنا لا يخجل من ان يكون مرعوبا ً كجرذ ، ويبكي!

واحسست بكلماتها طعنات قاسية تمزق اعماقي وصممت ان اتمرد :ان اصرخ في وجهها :كفى كفى انك تظلمينني . ودار امام منفذ الملجأ لغط شديد وارتفعت صيحات فزع لقد جاءوا بامرأة مصابة شابة في مقتبل العمر كماقالوا وتشنج صوت ام فواز وهي تولول : لقد ماتت جارتنا الطيبة سلمى ايتها المنكودة ترى ما حل بوليدك الذي فتح عينيه للنور قبل اسبوع واحد .ايها القتلة لم تمنحوها الفرصة لان تذوق طعم الامومة .

احسست بالخوار وبصعوبة في التنفس . كل شيء امام عيني كان كتلة مشوهة من السواد ،وحشرج في داخاي صوت ثائر : اريد ان اتحدى .

اقتربت ام فواز من المكان الذي ارتمي فيه وهي تقود واحداً من رجال الانقاذ الذين جاءوا بالمصابة ، واشارت بيدهاالي وهي تقول :ـ

(انظر ..اما يخجل هذا الرجل من ان يكون مكانه هنا؟ أما كان جديراً به ان يقف في مكانه الحقيقي هناك ؟ ونظرالي الرجل ملياً كأنه يريد أن يلم كل احتقاره ليبصقه في وجهي ..وصرخ قائلاً :

ـ ياللعار أيكون رجل مثلك هنا في ساعة حاسمة في حياتنا مثل هذه ؟

ولم احرك ساكنا .. فعاد الرجل يقول :

ـ انهض خذ مكانك معنا في اي موقع ..اغرس قدميك في ارضك ثابتاً كجبل .

ولم اعد احتمل فانفجرت قائلا:

ـ معذرة ياسيدي لا استطيع

ـ لا استطيع ؟ ياللعار . رجل ويقول مثل هذا القول ؟ ياللعار انني باسم محنة وطني آمرك ان تنهض .

ـ معذرة ياسيدي قلت لك لا استطيع لا استطيع لااستطيع وتشنج صوتي وانا اقول : انا مشلول !وانفجرت باكياً ..

لحظتها اخذ كل شيء شكلا مغايراً .. وساد الوجوم النسبي جو الملجأ، وتسمرت نظرات ام فواز بالارض .. كان رجل الانقاذ يمضي بعيداً وهو يخلص قدميه بصعوبة من بين الاجساد المتشابكة وفي الخارج كان الرصاص يلعلع والقصف يدوي والملجأ يهتز ويهتز ولكن المدينة ما زالت صامدة ..

اشارة

☐ القصة كما ظهرت منشورة في المجلة وكان قد تم تنضيدها بطريقة التنضيد اليدوي (جمع الحروف يدوياً) الذي كان شائعا ً في مطابع المحافظات آنذاك.